

## مضايق تودغا

محمد بنيس

إلى عبد الإله الصالحى

في الخريطة وحدها كانت مضايقُ . تُودِغَا . لطنخةُ تدنو من الليلِ . وسطَ لطنخةٍ أوسع . خضراء .  
الجنوبُ أولُ ما تميلُ نحوه سبابةُ . أوسعُ هذا الأخضرُ . داكنُ . خطوطُ في أسفلِ الأنفاسِ أنساها  
قليلاً وأنا أترصدُ النزولَ إلى الجنوبِ . على خريطةٍ هي انتعاشُ المحيطِ بالأرضِ التي انخفضتُ  
بين أنفاً وسهولِ سُوسِ .

لم يكنْ ذلكُ صدفةً . تُودِغَا . وهى هناك قبلَ الوصولِ إلى هُناكَ يستحيلُ أن أتعرّفَ على  
الْبِنِيِّ مُجسّداً أمامَ العينينِ . جسّدُ يقابلُ جسداً . هل الثلجُ . هل الشلالُ . في داخلي الأنفاسُ  
تلعبُ بالاسمِ . تُودِغَا .

محمد بنيس ، شاعر من المغرب

للطريقِ مفازةَ الغمرِ . بعد لأي . بعد انفلاتِ . شعاعُ الشمسِ يدلُّ وجهي على صوابِ ما  
أختارُ . لكنَّها الطريقُ بسماؤها تُفسِّحُ في مُشاهدة اللقالقِ . لو أنني اهتديتُ بها بدلاً من استشارةِ  
الخريطةِ . بين الأرضِ والسَّماءِ طُرُقُ تنامُ . كان سائرونَ قبلي يُحبِّدونَ تصويرها في صدورهمِ .  
من جنوبٍ إلى جنوبٍ . حاملينَ مع الصَّمتِ الصَّلواتِ وفي أيديهمُ القناديلُ .

هنا يستدعي الغريبُ غبطةً . وهو في التجريدِ يتقدَّمُ حرية أن يكونَ منزوعَ الكلامِ . في أعماقه  
وشوشةً . لقالقٍ من علوِّ . بلى . تلك هي الطريقُ .

كُنْ صباحك  
قبل أن يتأخَّرَ موعدُ البلورِ  
عن السطوعِ في رُكنِ  
خفيِّ  
عناكَ قبل أن  
تهجَّرَ العروقُ طريقَ  
الشيْبِ في وادٍ  
هو أنتُ

من جديدٍ حياةٍ أرددُ  
تائهةً  
لا البدايةً أبتغي  
صباحٌ يسقطُ من رحمِ الليلِ  
وجوهٌ تستضيفُ الشفقَ  
عند النبعِ تقتربُ الأيدي  
لقالقٍ تنضجُ عبرَ اندفاعِ الفضاءِ

في الصَّعودِ إلى تِيزَنْتِيسَتِ . الهواءُ . برْدٌ بطيِّوبِ الشَّيْحِ يصطدِّمُ . بأصواتِ طَلَبَةِ عَائِدِينَ من  
ذَاكِرَةٍ مَهْجُورَةٍ . يستظهرونَ أَعَزَّ ما يُطَلَّبُ . مقهى في ارتفاعِ السحابِ لا لأجلِ استراحتِكَ .  
بل . حتَّى لا يُغادرَنَّ أبداً عُلُوَّ الثلوجِ انبساطِ الأَخْضَرِ تدافِعِ بيوتِ لها لونُ التُّرابِ نحوَ مركزِ  
مجهولِ . ضع الكُرسيَّ . امنحِ صدركَ للوافدينَ عليكِ . لوحتا إِشْهَارِ فانثا كوكاكولا . وأنتِ  
ترغبُ في برادِ آتائي .

الصَّوءُ أطولُ . انتقلِ الضبابُ إلى غُرْفَةٍ وأغلقِ البابَ . الضوءُ سكرانُ . ها قد اختلطَ الأَخْضَرُ  
بابتسامةٍ حتَّى الصمَّتْ رِقٌّ . هُنا للأَخْضَرِ الغَازُ ميلا دِ . سماءٌ فوقَ ماءِ العشبِ تُمشي . سطوحُ من  
عُلُوِّ في عُلُوِّ ساقطاتُ . ما تُحسُّ ولا تُحسُّ . سيانُ . هواءٌ فيكَ طبقاتُ الهواءِ تتحرَّكُ بأجنحةٍ  
لها لمعُ الجداولِ . تحتَ جلدِكَ نعمةٌ أن تُشاهدَ رُعْشَةَ هي الباقوتُ أزرقُ . يجذبُ وجهكُ  
الميلانُ .

تنحدرُ

حقاً تنحدرُ

لا تعرفُ من يقودُ الآخَرَ . سيارتكُ أم أنتِ . من جلالَةِ العُلُوِّ انحدرُ لا يتوقَّفُ عن مفاجأةٍ  
منعطفاتٍ . هي لكِ . العروجُ إلى القصيِّ من ضوءِ أغصانِ لا تُبالي كيفَ أنفاسكُ انعكستُ  
عليه . انحدرُ باتجاهِ السهلِ . سوفَ تُتابعُ ما قرأتِ وما كتبتِ بدونِ فهمِ . ما رجوتِ . نهايةُ  
تندسُ في أشكالِ بدايةٍ .

أقساطُ من الحُقولِ تتراءى مُنتعشةً باخضرارٍ يكتفي بضوئه . كأنما هو نَفْحَةٌ بينَ سيقانِ قَمْحٍ  
قد اشْرأبتِ . من مسافةٍ ما لا تراه . سيقانُ تكادُ تسمعُ موسيقاها وأنتِ تُبطئي في ملاحقةِ نظرتكُ  
بالشَّميمِ . لا تتخلى عن التَّحديقِ في شفافيةِ الأوراقِ . أخضرُ لَنْ يَختفي عنكَ بعدَ الآنِ . ضوءُ  
الشَّمسِ كلما اندلَقَ على الأحجارِ الأرضِ بأجمعها تُهاجرُ في دمكِ . تسمعُ خَلجاناً من الموسيقى  
ترتقي كَتفَيْكَ . منابعُ ماءٍ تتوالى في الظهورِ . هي اليومُ أسطعُ من بياضِ لؤلؤةٍ . هُنا النهارُ يغادرُ

أعشاشه ولا يعودُ أبداً إليها .

طريقٌ في طريقٍ إلى المضائق . تُودِغَا . اسْمُكَ مُقْبِلٌ مَّا يَتَقَدَّمُ نَحْوِي . أَرْضٌ تَسْتَقِرُّ فِي لَدَّةِ  
الْأَثْنَسِيِّ حُقُولَ الزُّعْفَرَانِ فَالْوَرْدِ . لِي قِطْعَةٌ مِنَ الْأَبْدِ هَذَا الْمَكَانِ . بَادِيَةٌ مِنَ النِّيرَانِ . يَحْدُثُ أَنْ  
أُنَادِي تَأْفِرَاوْتِ . لَكِنَّ تُوْدِغَا . تُوْدِغَا . تُوْدِغَا . مِنْ أَيْنَ هَذَا الصَّدَى يَنْشُقُ . مَعَ ذَلِكَ لَمْ أَكَلِّمْ  
أَحَدًا . وَضَعْتُ يَدَيَّ فِي ضَوْءِ لَيْلَةٍ مِنَ الْأَنْفَاسِ يَتَحَدَّرُ . بَيْنِي وَبَيْنَهُ غُمُوضٌ بِاتِّجَاهِي يَنْدَفِعُ . قَافِلَةٌ  
تَذَكَّرْتُهَا عَبْرَتِ السَّهْلِ قَبْلَ أَنْ تَتَوَقَّفَ عِنْدَ مُنْخَفِضِ جَدُولٍ بِخُضْرَةٍ مَائِهِ يَجْرِي .

كَانَ الرَّعَاةُ عَلَى امْتِدَادِ قِصْبَةٍ لَا أَمَلٌ فِيهَا يُوَلَّدُ . بَضْعُ أَطْفَالٍ (بُنْتَانٍ وَثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ) يَتَسَابِقُونَ  
فِي خِلَاءٍ أَوْسَعٍ مِمَّا تَوَقَّعْتُ . فِي الطَّرِيقِ الْآخِرِ قَمَمٌ عَلَى هَيْئَةِ أَشْبَاحٍ .

هنا تَكْوِينُ الْأَرْضِ مَبْعَثٌ .  
رَوْحُهَا مُجَسَّدَةٌ فِي أَغَانِي تَنَأَى عَنْ عِبَثِ  
قِطَاعِ الطَّرِيقِ الْعِصَابَاتِ اللَّصُوضِ .

تُوْدِغَا  
إِشَارَةٌ فِي عُرِيِ الْهَوَاءِ  
الْهَوَاءِ الَّذِي يَنْزَلُ  
ضَاغِطًا فِي الْحَلْقِ هَوَاءِ كَلِمَاتٍ  
لَهَا الْأَزْرَقُ

عَطَشٌ يَتَأَكَّدُ

مَنْ

لَوْنِ الْمَعَادِنِ كَيْفَ تَنْطِقُ بِالْبِرَاكِينِ  
بِالْإِنْهَائِيَّةِ مُنْكَشَفَةً

أزرقُ ثابتٌ  
والدمُّ  
طريدةٌ طيورٌ أكثرُ اتِّصاحاً  
في مُطلقِ الكلماتِ

وأنا أسوقُ حمّايَ في المسلكِ . أتفقّدُ الدّخيلةَ أزميها بالحصي الأملسِ الصلدي كي لا تفرّ إلى  
حيثُ لا أعرفُ . مسلكٌ في شعابٍ . في علوِّ أزمنةٍ هي التاريخُ ما قبلَ التاريخِ . هي اختلاطُ  
البراكينِ بالزلازلِ انشقاقِ الأرضِ في أيامِ كانَ اللهُ سَمَهاها مواقيتِ الخلقِ ثم قذفَ بها إلى النسيانِ .  
هي الأغاني التي نزلتْ صُدورَ التُّودغياتِ .

أبطأ من حَفيهِ شاهدتُ جسدي يُنفصلُ عني . يُنقسمُ إلى جسدينِ . ثلاثة . أنا رابعكُ .  
خامسكُ . لا تسألُ عن عددي . في مسلكٍ يحتملُ أن يلتبسَ بقعرِ الوادي . أنا . أرضكُ في  
أسفلِ الأنفاسِ . صمّتْ يضيءُ جذورَ الجبالِ . باردٌ هذا المسلكُ . لا بدّ أن يكونَ العبورُ طوفاناً .  
فوقَ الحصى تحسُّ العظامُ تتجمّعُ خطوةً خطوةً . نحوَ جدولِ الماءِ تتوجّهُ القدمانِ أمشاطُ القدمينِ  
كعباهما .

أسمعُ عطشاً يئنُّ  
عَطشي  
وأنا أصفُ أمامَ ماءٍ يُقوي غموضاً لا هو الأملُ ولا هو اليأسُ . عيني في ماءٍ له أسرارُ  
عواصفَ . ربما تركتُ ساعدي تنجرفُ عروقَ يدي تغرقُ في جوفِ حيرةٍ

طبقاتُ أبديةٍ في  
كلِّ درجةٍ  
من درجاتِ اللانهايةِ

سلاّم عليك أيها المسلك في ارتقائه يتسع ويمضي . خيمة لا استقبال الوافدين . كراسي طاوولات  
يظللها ارتفاع الأرض من جهتين . تفضل . هنا . يدعوك الشاب الذي يحمل صينية تتوسطها  
كؤوس وبراد تتوسطها معلبات مشروبات . خذ مكانك في بسطة من الأزرق . الذي هو آية  
الشرق . استرح في طريق إلى طريق .

لك أن تجلس في أسفل الصخور . كتلة عن يمينك . كتلة يتوسطها كلام لا يبين . ناسياً من أين  
أتيت . اخفض يديك إلى أعماق أزمنة . لك أن تقسم في مكان كان الملاك أملى فيه الكتاب .  
شعبلات من كتابة الحجر لا تشرح شيئاً .

باركئك .

أيها المتألمات .

حجر في حجر من الجهتين . الزاويتين . هذا الشاهق الحجر . الصخور . مع العلو تظل أعلى .  
سماء تختطف القصيدة إلى كل ناحية من العلو . ألواح هي الألوان بسرعة تصطف  
أزرقاق

في أخضرار في أسوداد

في أسرة هي النبي . مرة بعد مرة يتموج يضيق ينفلق . دائماً يتردد عازفاً موسيقى ضوء  
الصباح .

هامت يداك . لا تعبت بهما . أطلقتهما ترعيان متسلقتين مهبط الأنفاس

إنك

راحل

مقيم

مقيم

راحلٌ

بينهما

أنت

لا

أنت

أفترج أزرارَ القَميصِ بعدَ أنْ خلعتَ المعطفَ . نازَ تهجُّمٌ عليكِ منْ ليلِ السؤالِ . منْ أنتِ .  
تهجُّمٌ . منْ أنتِ . أيها النَّازلُ في اضطرابِ الماءِ لا تستأذنِ شفاءً منْ البراكينِ . توغلُ في هجيجِ  
أزمتهِ تدركها القصيدةُ وحدها في ألقِ المنغنيزِ النحاسِ اليورانيومِ الحديدِ في ألقِ أنْ تكونَ

أنت

لا

أنت

مولاي . هبطَ في جسدي سَهْمٌ منْ جسدي . عُقابٌ . بمنقارهِ يفصلُ الكلماتِ عنْ صاحبها .  
اختلاجٌ هذا الهبوطُ إلي . إلى القصيدةِ . كانتْ مُعلَّقةً (سَبْعُ مُعلقاتِ أوْ عشرُ حسبَ ما تُفصي  
إليهِ المُفاوضاتُ بينَ القبائلِ) كُلُّما هبطَ العُقابُ واهباً لكلِّ بيتِ صمتهِ . بينَ قسيمٍ وقسيمٍ توقُّفُ  
الأنفاسِ . إنَّكَ في رثيتِكَ منْ جديدِ

ثمَّ ها هي طبقاتُ الأرضِ تتضحُ في حواسِّك كُلِّها . رواسِبُ منْ جديدِ ذلكَ العهدِ الذي لمْ  
تسمِّ فيه . تُودِعا . بعدُ . لمْ تُصبحِ جناحَ أغنيةٍ .  
حديثُ تجاذبتهِ الرياحُ . لكنَّها الألوانُ . أحمرُ . أزرقُ . أخضرُ يدنو منْ حافةِ البني . معادنُ بينَ  
البراكينِ والزلازلِ . هابطاً منقاركِ يا عُقابُ المنغنيزِ اليورانيومِ النحاسِ . لكلِّ طبقةٍ

لا

نهايتها

من أفق كان هنا .

هل العلو ما يلقى من صباح أتخيله يجري بين حمم هل التراب الحجر الصخور . وأنا أنظر  
إلى معلقة . أرفع قامتي لأراك طبقة طبقة . أغراض قصيدة لا تزال تضحك قريباً من ظهور  
حجر وأنفاس . مقامات متصوفة تخللوا عن بغالهم عند باب مسلك الوصول إلى المضائق .

تودغا . كلمة تهب نفسها قبل ارتداد الطرف . يلزمني أن أطيل المقام . واقفاً . أتقدم بطيئاً .  
فوق حصي بألوانها الألف

أخايد تسافر في شموخ ليل الخلق . ما أنشأت الشبول . موسيقى وشوم قد انحفرت . وليس  
تحت الليل غير الليل . عندما اندلقت مياه من أعالي الأرض كانت قد استقرت فرجة

فارفع إلى الأعلى من الأعلى بصرك . واقفاً . تتقدم . فرجة للأرض شاقول هو الخط السماوي  
هابط من عهد عهد .

بين صخور ونشوات . لا تطير . لكننا يدان من داخلك تحلقان بجذعك في ارتفاع درجة  
البرد . موعلاً . كنت للملاك تنصت فيك يردد  
الطريق طويلاً  
كانك لا تنصت .

واقفاً . في برودة الصخور . تودغا . أشكال من الحجر لا تميز بينها وبين الغمام . إنك حُر  
في الأثياس أو تأمل . متسع من المكان . هنا . الشلال اختفى .

لا

تُبَاغِتِ الْحَجَرَ  
سَلَّمَ عَلَيْهِ  
أَلْتَقِ بَوَجْهِكَ فَوْقَهُ  
أَنْفُخُ  
فِي مَعَادِنِهِ

حَجْرٌ  
يُحِبُّنَا وَنَحْبُهُ  
قَالَ لِي

لِي  
الآن  
هذا الحجرُ  
ألوانه ترتجُ  
في صدري أحجامه  
تتساكنُ شيئاً فشيئاً  
تتكتلُ  
صاعدةً من عهودِ  
عواصفِ بي تنأى  
عني تغيبُ

ولا يكفي أن تكون . تُودَعَا . رهينة الأنفاس منك . إذن . وفيك شيء ناقص ينشق عنك . ما  
الذي همم بك . ناراً . خلف سياج يفصلك عن وجهك في طريق إلى طريق . أو مات غير أن إنني  
الليل الذي يلزم . الكلام . إنني مرقد الأسرار بها تحس قبل الدخول إلى سواد كان كلمني .

سواد فوق برد فوق أحجار . تحاول أن تتكى على صخرة لا تراها . لكن السواد أفق بجانبى .  
فابحث عن الكلمات في حجر وأنت تستضيف الوافدين من صمت تعدد  
كلما  
أحسست

بالقطرات . بهاء هب من وسط الصمت . صورة الأحجار تكاثر غموضها . إليك  
يعود وهم أنك كنت تسكن برد غار في مكان لن تعثر عليه .

ولي غار المضائق . لي أفق يكاد يسبق روضة المجهول . من كان يقرأ الكتاب في حجر . هذا  
البرد بغتة . كنت اختليت بالخطوات . أمشي . هنا . ملقتى الطرقات في تودغا إلى تودغا .

أنكسار . ربما انفلاق عندما سمعت الهدير . هديره . بارد كنت في أسفل الليل . بروق وحدها  
أتملت . هي الألوان في لمعة وسعت أرضاً . سماء . ما يفيض أزرق . رافعاً عيني أفتحهم المكان .  
عابراً ليلاً يجيء وأنا أصحاب شمساً في نهايتها .

لتكن . تودغا . اسم الرحيل إلى نفسي . المنفى . معادن في طبقات الصخر سالت . لا . في  
جمع من الحجر انفجار بنفسجة يدوي منذ القديم . تاركاً أصداءه ليبدأ كل يوم ما يضيء .  
عين تراك في علو ما يعلو من الجبل . قوافل ترفع الأنفاس من صخر إلى صخر . وهم أهلك  
القدماء ما زالوا يقطفون الصمت في . تودغا .

تحت السماء الصخور

تحت الصخور

الهواء

كيف انقذت إليك اهتديت

باسمك فوق شفتين  
عطشاً ووين

وهبت لك قدماً كلما  
قدم  
كلت بين مغرب ومشرق  
بلورة مع ذلك  
أعجز عن لمسها بشفتي

قطرات الندى فوق  
تراب غار  
تسقط  
وأنا أعود عليها

كلمة . من الغار ما كتب المطر والبنفسج معاً . في ليلة لا تنتهي . كلمة . وأنت لن تتراجع .  
وجهك قبالة الجهة الحقة للحجر . إنك هادئ . يصعد العلو . جدار من هواء هنا . يبقى .

غارك هذا الليل  
فاستقر

كما عهدتكَ بين جناحين مبليين . هما الصخر من جهتين . في مكانك . كذلك اللمخ الذي  
اصطفى صمتك عبر منك إليك . سماء تحت كلماتك لا تأذن لأحد أن يملّي عليك ما لا تلمس  
مُنتقلاً بين البرودة والحرارة  
واهباً عينيك لعز الليلة الأصفى

ثم لا شيء يتقاسم الصمت مع الحجر سوى خطوة في الكلمات التي بها رأيت مضايق

تُودِغَا

منذُ أنْ أقبَلْتُ على العتبهِ سلَّمْتُ على اتِّحادِ الحَجَرِ بكلمةِ الليلِ الذي أَنَا ابْنُهُ  
ثمَّ تركَ ما تركَ لكَ ثمَّ بكى

لشدةِ آنَكَ أنشغلتَ بكتلِ الصخورِ بانعكاسِ الظلِّ فوقَ المسالكِ ربَّما سهوتَ عن الإسرافِ في  
مُشاهدةِ الماءِ في الإنصاتِ إلى الكلماتِ تهبُّ عليكِ من غارِ هو أنتِ .

أسفلَ الليلِ . أسفلَ . البردِ . قبالتكِ النهارِ والصُّخْرِ . فُرجةُ هي الماءِ . الكلماتِ . الضُّوءِ .  
تُودِغَا .

خُطواتٌ لا صمتٌ يوقفُها

لَا

أَغاني التُّودِغِيَّاتِ

المحمدية، أبريل - بوردو، أكتوبر ٢٠٠٣